

فبشر عبادي الذين يستمعون القول
فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم
الله وأولئك هم أولو الألباب

المساجد

١٣١٥

بوتى الحكمة من بناء ومن يوتى
الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما
يذكر إلا أولو الألباب

(قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « مناراً » كمنار الطريق)

(معر في يوم السبت غرة محرم الحرام سنة ١٣١٩ - ٢٥ ابريل (نيسان) سنة ١٩٠١)

الانتقاد

« من مقالات مولانا الاستاذ الحكيم صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبده »
« مفتى الديار المصرية »

﴿ ما وعظك مثل لاثم * وما قومك مثل مقاوم ﴾

الانتقاد نفثة من الروح الالهي في صدور البشر تظهر في مناطقهم
سوقاً للناقص الى الكمال وتنبهاً يزعج الكامل عن موقفه الى طلب الناية
مما يليق به . الانتقاد قاصف من الائمة تنفس عنه القلوب وتفتق به
الالسة لتقريب الناقصين في أعمالهم ودفع طلاب الكمال الى منتهى ما يمكن لهم
جعل الله للحياة قواماً وقوام الحياة بالادراك

انما الانسان كون عقلي سلطان وجوده العقل فان صالح السلطان
ونفذ حكمه صالح ذلك الكون وتم امره . ان الله لم يهمل العقل من
ناصرين عزيزين حاذقين احدهما له والثاني له وعليه أما الاول فما قرن الله
به من غريزة الميل للافضل ، والأصطفاء للأمثل ، وأما الثاني فما ألزمه

الصانع من الاتقياض عن الدون ، والنفور عن منازل الهون ، فذاك محدود ، وهذا يسوقه ، وذاك يزين له الطالب ، وهذا يزججه الى الهرب ، وكل منازل العقل صعود الا ادناها فمعجز يقف بأهله على شفير العدم ، وكل منزلة بعد الاذن ذنوب من الكمال ، غير ان ما يسمو اليه العقل ، أشبه بما ينسبط اليه الوجود ، يمتد الى غير نهاية ، ويرتفع دون الوقوف عند غاية ، فليس يصل متجع الكمال الى مقام الا ويرمى بطرفه الى ابد منه . ومساقط المعجز وبينة المقام ، كثيرة الآلام ، تستوكرها افاعي الهوم ، وغائلات الهوم ، وقد جعلها الله من وراء العقل كلما التفت اليه راعه هول منظرها فتَحَفَّرَ عنها ، الى منجاء منها ، ولا يزال يزجيه الخوف وتطير به الرغبة حتى يدنو من رفر السعادة الاعلى

ولكن كلال البصائر البشرية قد يقف بها عند مظاهر غرارة ، وظواهر مختارة ، فتخالها طلبتها ، وتحسبها منيتها ، ولا تدري ان بها هلكتها وفيها منيتها ، فتلها مثل الطير ينظر الى الحب النشور ويتبى عن الفخ المنسوب فاذا سقط للاتقاط وقع في يد الخابل أو مثل الفترس يلوح له لأتح التريسة ولا يشعر بما أعد له صائده فاذا وثب عليها اتاه الصائد من مقتله ، وأعجبه عن ما كله ،

لهذا وكل الله بالعقل منبها لا ينفل ، وحسبها لا يهمل ، وكالتا لا ينم يزجج الواقف ، ويمسح التريث ، ويمسك الراجف ، ما سكن ساكن الى حال ، ولا قنع قانع بمنال ، الاهتف به ان ما تطلب امامك . ولا أوغل موغل فيما لا ينفعه ، ولا أوضع موضع الى ما يضره ، الا صاح به : تست الجدود ، وأضرعت الجدود ، فتنقض من سيرك ، وقوم من سيرك والافانل مقيلك ،

والملكة مصيرك . ذلك الواعظ الحكيم والمؤدب العليم هو (الانتقاد) ينبت في الفؤاد ثم يجلي في البيان ، على أسلّة اللسان ، فيفقه العالمون ، ولا يهمله العالمون ، « فطرة الله التي فطر الناس عليها » أودع في كل ناطق بصراً بشأن غيره أشد احاطة من بصره بشأن نفسه ويمكن كلاً من تمييز أحوال الآخر حسناً من قبيحها ، وفاسدها من صحيحها ، ثم دفعه للنطق بما ألهه ، والقضاء بما أحكمه ، فكان لكل إنسان ابصار بمدد الناظرين إليه ، والعارفين بما عليه عمله ، كلها كبصره تربه الخير فيطلبه ، وتكشف له الشر فيجتنبه ، وجعل الله الناقدين أقساماً فمنهم ناظر الى الفضل لا يمدوه فهو يذكر المنقبة ، ويفض عن المثلية ، ومن هذا القسم المقرطون في الوفاء من الاصدقاء . ومنهم رقباء النقائص وجواسيس العيوب يرؤون المسآآت ، ويسكتون عن الحسنات ، وفيهم الحساد ، واهل الاحقاد ، ومنهم ناظرون بالعينين ، عارفون بالوجهين ، يذكرون للكمال ثبته ، ويلزمون النقص ويوله ، وهؤلاء في أعلى المنازل وفيهم الآصرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله . ومن الناقدين فاسقون يكتمون ما يعرفون ، ويهرفون بما لا يعلمون ، وهم في أخس المنازل . وليس في الناس الا من تجتمع هذه الاقسام له وعليه . وما جعل الله بشراً يسلم منها ويحرم من بعضها فكانها التي قال فيها « وان منكم الا واردها » وكلها صدى صوت الكمال الالهي الأعلى ينادى الكاملين ان يستريدوا ، والناقصين ان يستجيدوا ، هل لجاحد ان يصغر قدر هذا الحبيب على أي وجه كان حسابه ؟ أو لجاهل ان ينكر حكمة الله في تقييضه لنا ؟ أو لواهم ان يذهب الى انه ليس من نظام الفطرة ؟ واني أحيلك على خواطر نفسك اذا بلغت وانت

غربي مثلاً ان ملك الصين غدير بأحد أوليائه أو استصني أموال رعيته
أو كلهم ما لا يطيقون احتمالها أو اهل في مصلحة بلاده حتى تجرأ عليها
اعدائها أو جبن عن دفع حادث ألم به وكان يستطيع دفعه ألا ترى من
قلبك امتعاضاً عليه ومن نفسك ازراء بعمله وفي لسانك لهجة بلومه وهو
منك على بعد المشرقين ؟ ولئن وصلت اليك روايات عدله وورعائه حقوق
بلاده وحفظه لذمامه وجدت اليه من فؤادك ميلاً ومن رأيك لعمله
استحساناً ومن لسانك عليه ثناء

ولو شئت حاكمتك الى مذاهب ميلك عندما تنظر في تاريخ لمن
سبقك فان مثل لك النظر فضلاً في سيرة ، أو خزنة في جريرة ، ألسنت
تجد من ميلك انبساطاً الى فواضل النور ، واتقباضاً عن مخازن العرود ، ثم
انطلاقاً الى نشر ما وجدت ثم رأيت عضداً منك لاحدها وكأنه قائم
يستنصر فانت تنصره ، وتقيظاً على الآخر كأنما يدعوك لعونه فانت تمخذه ،
لا جرم ان النقد نائرة غريزية تقدح شررها على السابقين واللاحقين
وكل نقد فحشوه لوم حتى ما كان منه قاصراً عند بث المحمدة والاقرار
بالتفضيلة فانت حمد الكامل عدل للناقص على التصدير وازعاج للمحمود
وزجر له عن ملابسة الاعياء فكأني وصاحب الثناء يقول : ألا أيها
القاعدون انهضوا ، ويا أيها المبرزون اركضوا ، واحذروا الوقفة فاتها
بداية القهقري . تلك اقلام الحق ، في السنة الخلق ، لا يصم عن نداءها الا
أصم ، ولا ينبي عن انذارها الا أيهم ،

على ذلك قام النظام الانساني فلولا الانتقاد ما شب علم عن نشأته ،
ولا امتد ملك عن منتهيه ، أرى لو افضى العلماء نقد الآراء واهملوا

البحث في وجوه المزاعم كانت تسع دائرة العلم ، وتجلى الحقائق للفهم ،
 ويعلم الحق من المبطل ؛ اولو اغمض الأعداء والاولياء عن سياسة السائس ،
 وتدير الحاكم ، وهجروا النظر في قوة الملك ، ولم يقرعوا كل عمل بمقارع
 النقد ، اكانت تستقيم محجة ، وتعادل حجة ، او تعظم قوة ؛ كلا بل كان
 يحكم النور ، وتسلط الغفلة ، ويعود الصواب خطأ ، والنظام خلا ،
 تلك سنة الله في الاولين ، وهي كذلك في الآخريين ،

فالمبوط في حاله من يستمع قول اللأئمين ، ويستطلع خواطر المعترضين ،
 ويتصفح وجوه المتكبرين ، ذلك روح الحياة فيه يطلب حاجاته ، ويحفظ
 من آفاته ، وليس فيما يملك الحازمون انفس لديهم ، من الانحاء عليهم ، بما
 ينههم اذا غفلوا ، ويعلمهم اذا جهلوا ، ويهديهم اذا ضلوا ، وينعشهم اذا زلوا ،
 وكما توجد نفائس الارشاد هذه عند الاولياء ، توجد عند الأعداء ، بل هي
 عند هؤلاء اجود فانهم يرفضون للمعايب اعلاماً بيّنة حتى لا تعود فيها شبهة
 لناظر واحجى بالعقل ان لا يمج من الانتقاد شيئاً حتى اكاذيب اهل الضغينة ،
 ورجوم ذوي السخيمة ، على مخالفتها للحقيقة . فان باطيل اللوم تكون
 للعقل بمنزلة المسالح تقام في الثغور زمن السلم حذراً مما عساه يطرقها من
 عدوان المغيرين عليها واقل ما يكون من العاقل فيها ان يقول : قيل فينا ولم
 نعمل فكيف بنا لو عملنا . فهي ان لم تهده الى مطلب ضل عنه ، ولم ترد اليه
 فائتاً كان ينفلت منه ، فقد تحفظه من السقوط فيما يجعل الكذب صدقاً ،
 والباطل حقاً ، فمن فسق لسانه ، وخالف بيانه جنانه ، وجاء يغير الحق في
 ثلب غيره فقد افسد نفسه لصالح عدوه ولله ما يقول بعض الصوفية :
 جزى الله الأعداء عنا كل خير فلولا هم ما نزلنا منازل القرب ، ولا حللنا

حظائر القدس . هذا وقد كفر قوم نعمة الانتقاد فظنوا صنع الله فيه عبثاً
«نموذبالله» فوقروا عنه آذانهم ، وعطلوا من ناحيته سمعهم ، وجعلوا اصابعهم
في صماليخهم^(١) من صواعق زجره ، وقواصف نهيه وامره ، وضربوا بينهم
وبين اهل النقد حجباً ، واقاموا دونهم استاراً ، وخيل لهم الجهل ان صممهم
عنه ، يقيمهم منه ، وان قبوعهم في اُهب الغفلة^(٢) يدرأ عنهم سهام اللوائيم كأنهم
لا يعلمون ان ذلك وقوع في اشد مما خافوا ، وان دفاع الى شر مما رهبوا ،
فثلهم كمثل بعض الطيور اذا رأى الصائد غمس رأسه في الماء ظناً منه انه
متى انمض عن طالبه انمض الطالب عنه فيكون بذلك قد يسر الصائد صيده ،
وسهل عليه كيده ، ومن ثم تجدهم في عمى عن شؤونهم وتخط في اعمالهم
قد ازموا خطة من الهون لو ابصر عقلم بعض اطرافها لما اتوا جزعاً من
هول ما فيها . كل ذلك واسلات الألسن واسنة الاقلام لا تألوا في تقريرهم
بل وصوت الحق الصريح يناديهم من عمائق ضمايرهم بشس ما اشترتهم
لا نفسكم لو كنتم تعلمون . وليتهم عاتب ، وعدوهم عائب ، وهم في غفلة من
هذا بل لا يشعرون

اولئك الذين ختم الله على سمعهم وطبع على قلوبهم فمروا من ناموس
القطرة الالهية فهم أموات الارواح ، مضطربوا الاشباح ، ولا تنشق عنهم
قبور الجهول حتى ينشرهم الله في حياة اخرى يخضعون فيها للأحكام الكونية
ويعملون على السنن الالهية ، فليتنظروا انا معهم من المنتظرين

(١) الصماليخ ج صملاخ وصملوخ وهو داخل خرق الاذن ويطلق على
وسخها (٢) الاهب بضمين جمع اهاب ككتاب وهو الجلد الذي لم يدبغ او اعم